# الفصل الثانى عشر
# دراسة فى الشعر العربى للخيام

الخيام شاعر مطبوع وإنْ كَتَبَ بأية لغة، إلاّ أنه كان مقلاً فى إنتاجه الشعرى، سواء بالفارسية أو العربية. وليس أدْعَى الى تصديق أنه لم يكتب كل هذا العدد من الرباعيات الفارسية التى قيل إنها بلغت الألفين، من الإقلال الذى عليه شعره العربى. ويبدو أنه كان من المؤثرين للإقلال فى كل شئ، وأن أسلوبه هو الضنّة - كما يقول القفطى - أى الإقلال، فهو مقِلّ فيما كتب من مصنفات فى الحكمة، ومُقِلّ فى شعره العربى، فلماذا يكون مكثراً فى شعره الفارسى؟ والغالب إذن أن ذلك كان حالُه أيضا فيه - الإقلال - وحتى فى مصنفاته فى الفلسفة، كان يؤثر تدبيج الرسائل على تأليف الكُتب، ويفضل المحاضرة على الكتابة، لأنه فى الرسالة يكون موجزاً، وفى المحاضرة يكون فى مواجهة المتلقى مباشرة، فيقصدإلى المعنى الذى يطلبه فى الحالتين بلغة بسيطة سهلة، وعبارات يتوخى بها الشرح والإفهام.

والدارس لشعره العربى يجده **أليق بسمعة الخيام الفيلسوف وشهرته كرياضى**. وأحسب أن الخيام فى شعره العربى يبدو مسلماً شديد الاعتزاز بإسلامه. وأسلوبه فى كتاباته العربيه عموماً يطبعه اللسان العربى، ويظهر به كمفكر إسلامى ملتزم. وكان اختياره لهذا اللسان لكتابة رسائله الفلسفية والرياضية، لأن العربيه أقدر على حمل معانيه بما لها من تراث ومصطلحات تُعوز الفارسية.

ويبدو الخيام فى كتاباته العربية مختلفاً عنه فى كتاباته الفارسية. والتزامه فى العربية تقابله فى الفارسية طلاقة وتَرَسُّل. وروح الكتابات العربية فى عمومها **روح سامّيّة**، تختلف عن **الروح الآرية** التى عليها الكتابات الفارسية، والأخيرة فيها الإيغال فى الشك، والميل إلى التفلسف، والاجتراء بطرح الأسئلة التى تنبئ عن التمرد، وليست كذلك الكتابات العربية حيث يغلب عليها الإيمان. وذات الخيام فى الكتابات العربية **ذات جماعية**، وفى الكتابات الفارسية **ذات فردية**.

ولم يختلف الراوون عن الخيام فيما نسبوه إليه من الشعر العربى. وهناك إجماع على نسبته إليه، على عكس الرباعيات الفارسية، فيما عدا رباعية عربية واحدة أوردها **المرحوم العقاد** ولم يُشر إلى مصدره فيها. والرباعية هى:

ألا أيـــها الســـاقـى • أدر كأسـا وناولهـــا
متى ما تلق من شهوى • دع الدنيـا وأهملهـا

وإيراد العقاد لها كان فى باب التدليل على أن شعر الخيام الفارسى لا يختلف فى مضمونه عن شعره العربى، وعن مذهبه فى تعاطى الخمر وإهمال الدنيا والعزوف عنها. ولم نجد كتاباً مما قرأنا عن الخيام قد رصد هذه الرباعية أو أشار إليها من قريب أو بعيد، الأمر الذى يؤكد أنها منحولة على الخيام - ولا أدرى كيف زلّ العقاد هذه الزلة ليُثبت قضية، الهوى فيها ظاهر، والحقيقة العلمية منطمسة!

والخيام فى هذه الأبيات العربية التى نقدمها له، جزل الألفاظ، والصور التى يستخدمها من التراث العربى، ومعماره فيها عربى صرف. وهناك مشابهات بين الأفكار التى فى هذه الأبيات والأخرى التى فى الرباعيات الفارسية. يقول الخيام:

تدين لى الدنيا، بل السبعة العُلـى • بل الفَلَك الأعلى إذا جـاش خاطـرى
أصوم عن الفحشاء جهراً وخفيـةً • عفـافاً، وإفطـارى بتقديس فاطـرى
وكم عُصبة ضلّت عن الحق فاهتدت • بطرق الهُـدَى عـن فيضىَ المتناطـرِ
فإنّ صراطىَ المستقيمَ بصائـرٌ • نُصِبْنَ على وادى العَمَى كالمناظـرِ

والنغمة فى هذه الأبيات عربية أصيلة، والخيام يبدو فيها متفاخراً ومتباهياً، يتيه بعفته وفضله على الدنيا بأسرها، وهو ما لا نجده أبداً فى رباعياته الفارسية فى أية نسخة من النسخ. وكل شعر الخيام مهما كانت صحة أو خطأ نسبته إليه، أو كل شعر مدرسة الخيام، ليس فيه إلاّ التواضع الشديد، وطلب الانزواء والبُعد عن الأضواء والشهرة. وانظر إليه فى هذه الرباعية الفارسية يقول:

أنا أثرتُ من الدنيا رغيفين وخلوة • وصرفتُ النفس من كلِ غنىً فيهاوسطوة
إننى ابتعت بروحى كلها نَرْوَشـة • فلكم ألقيت فـى متربة الدرويش ثـروة

بينما هو فى شعره العربى يقول :

سبقتُ العالمين إلى المعـالى • بثاقـب فكـرةٍ وطـو همـــة
فلاح بحكمتى نورالهدى فى • ليـالٍ للضـــلال مدلهمـــة
يريـد الجاحدون ليطفئـوه • ويأبـى اللـه إلاّ أن يُـتمّه

وهو فى هذه الأبيات يتواصل بروح الشعر العربى والتفعيلة العربية، بعكسه فى الرباعيات الفارسية حيث الرباعية تعطيه الفرصه أن يُفرد كل رباعية بمعنى من المعانى، كما أن اقتصار

كل رباعية على قافية يتيح له أن يكتب منها ما يشاء، وأن يؤلف رباعياته على مهل، وكلما تيسرت أحواله. وهذه السمات فى الرباعية هى التى جعلت من السهل على المؤلفين بها أن يراكموا منها أعداداً كبيرة اشتهرت عنهم، حتى أن أغلبهم لا يقل ما كتبوه من هذه الرباعيات عن الألف. **وهنا الاختلاف الحقيقى بين الروح السامية والروح الآرية فى الشعر والأسطورة: فالروح السامية** تميل إلى الإيجاز والتواصل فى المعنى والقافية. والموسيقى فى الأشعار السامية، وحتى فى الأمثال السائرة، تبرز فى نظم الكلمات. وإن من النظم العربى لذلك لآيات فى البلاغة، ومن الحكمة العربية لآيات فى الإيجاز. بينما **الروح الآرية** تميل إلى الشرح والإطالة والإسهاب، ويكفى لنتعرف إلى الفرق بين الروحيْن أن نطيل النظر ولو قليلاً فى الكتب السماوية الثلاثة – التوراة والإنجيل والقرآن – ونزولها كان بالروح الساميّة، وأن نقرن هذه النظرة بنظرة مماثلة متأنيّة فى كتب الفيدا الهندية، وقد أملتها الروح الآرية، وهى تبلغ فى جملتها آلاف الصفحات!!

*****

ويقول الخيام بالعربية:

رجيت دهراً طويلا فى التماس أخ * يرعى ودادى إذا ما خلّه خانا
فكم ألفتُ وكم أخيتُ غير أخ * تبدّلت بالإخوان إخوانا
وقلت للنفس لمّا عزّ مطلبها * بالله لا تألفى ما عِشْتِ إنسانا

وكم هو رائع تعبيره العربى إذا قارناه بمثله فى الفارسية حيث يقول بتعبير رامى:

لا تأمل الخِلّ المقيم الوفاء * فإنما أنت بدنيا الرياء

أو بتعبير عبد الحق فاضل:

صاحِ أقلِلْ ما تمكنت عديد الأصدقاء * واصطحب إنْ شئت أهل الدهر لكن من بعيد
إنّ مَن تركن فى الدنيا إليه بالولاء * ليس فى باصرة العقل سوى خصم لدود

ويقول بالعربيه أيضا:

إذا قنعتْ نفسى بعيسور بُلْغَة * تُحصِّلُها بالكدّ كفىٌ وساعدى
أمنت تصاريف الحوادث كلها * فكن يا زمانى موعدى أومُوَاعدى
ولى فوق هام النيّرَيْن منازل * وفوق مناط الفرقدَيْن مصاعدى

أليس قضى الأفلاك فى دورهابان * تعيد إلى نحس جميع المَساعدِ
فيا نفس صبراً فى مقيلك إنما * تخرّ ذُراه بانقضاض القواعدِ
متى ما دنت دنياك كانت قصيّةً * فواعجباً مِن ذا القريب المباعدِ
إذا كان محصول الحياة منيةً * فسيّان حالاً كل ساع وقاعد

وشبيه به قوله فى الفارسية بتعبير رامى:

إن الذى يعرف سر القضاء * يرى سواء سعده والشقاء
العيش فانٍ فلندع أمره * أكان داءً مسّنا أم دواء

*****

ومن شعره فى العربية أيضا:

ولو أعطانى الدهر اختيارى * بحسب السر منى والطوية
لَسِرْتُ على جفونى * لدى مغناك من عمرى البقية

ومنه:

أظلت رياح الطارقات رواكدا * أم انطبقت منها جفونا رواقدا
تحللت الأفلاك أم راث دورها * فصرنا حيارى قد ضللن المراشدا
كان النجوم السائرات توقفت * عن السير حتى ما بلغن المقاصدا
ففى قلب بهرام وجيبٌ ورومة * وكيوان أعشى ليس يرعى المراصدا
لذاك تمادت دولة اللؤم وانبرت * بنو الترك يبغون السماء مصاعدا

*****

وآخر ما نعرف من هذا الشعر قوله:

العقل يعجب فى تصرفه * ممن على الأيام يتكل
فنوالها كالريح منقلب * ونعيمها كالظل منتقل

وهذان البيتان مما اشتهر إنشاد الصوفية لهما، والمعنى الذى ينصرفان إليه ينسجم مع كثير مما تضمنته الرباعيات.

*****

ولعل مجمل معانى الشعر العربى للخيام هو نفس مجمل معانى الرباعيات إلاّ فيما اصطلحنا عليه باسم الرباعيات الإباحية. وربما كان مذهبه فى الحياة سواء هنا أو هناك

توجزه هذه الرباعية التى تؤكد معانيه فى الشعر العربى ولا تتصادم معه، لا فى القليل ولا فى الكثير:

زخارف الدنيا أساس الألم * وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خلّى البال من أمرها * فكل ما فيها شقاءٌ وهمّ

*****